الاتجاه الرومانسي في الشعر الجزائري

ماهية الشعر من المنظور الرومانسي:

يقصد **بالشعر الرومانسي** «التحرر في المضمون والرؤية والموقف من جهة، وبين التحرر في شكل اللغة، والموسيقى، والخيال من جهة أخرى»، فهذا الاتجاه «يرى بأن الشعر يجب أن يكون تعبيرا صادقا عن إحساس الإنسان وعواطفه، ولا يرى عيبا في أن يعبر الشاعر عن آلامه الذائية إن كان صدق الإحساس وعمق الانفعال هو الذي يدفعه إلى ذلك» ، وقد أبرزت لنا أغلب الدراسات أن البداية الفعلية لظهور هذا الاتجاه كان مع الناقد الجزائري "رمضان حمود"، حيث يعد الصوت الوحيد المتميز الذي نادى بهذا الاتجاه بآرائه ونظرياته في تلك الفترة، ومرد ذلك سيطرة الجو المحافظ التقليدي. وبهذا فالناقد اعتبر "رمضان حمود" «رائدا من رواد هذا الاتجاه في الشعر الجزائري الحديث»، حيث رأى من خلال استقرائه لآراء الناقد الجزائري "رمضان حمود" «أنه يسير في الاتجاه الذي سار فيه الشعراء والنقاد الرومانسيون في أوروبا، ولاسيما في فرنسا». وقد تطرق ناصر إلى مجموعة من الأحكام النقدية التي أطلقها "رمضان حمود" على الشاعر (أحمد شوقي) حيث حكم على شعره بأنه تقليدي إذ أنه «لم يأت بالجديد لم يعرف من قبل، أو من طريقة ابتكرها من عنده، أو اخترع * أسلوبا يلاءم العصر، وأكثر شعره أقرب إلى العهد القديم منه إلى القرن العشرين». وذلك لأن «اهتماماته الشعرية ظلت مقتصرة على الموضوعات التقليدية من مدح، ورثاء، ووصف للقصور والمراقص، وافتخار مما سبق، ومعارضة القدماء»"، وكان هذا النقد في مجمله نقدا يوافق ما قاله العقاد خلال نقده لشوقي قائلا : «أما تقليده فأظهره تكرار المألوف من القوالب اللفظية والمعاني، وأيسره على المقلد الاقتباس والسرقة، وأعز أبيات هذه المرثاة على المعجبين بها مسروقة مطروقة»"، فمفهوم الشعر عند "رمضان حمود" يرفض تلك المعاني القديمة والألفاظ الشائعة المتداولة بل يرى أن الشعر يجب أن يواكب صيحات وموجات التجديد حيث «دعا الشعراء إلى نبذ لغة امرئ القيس، والمهلهل وطرفة الجاهليين، وانتقد الشعراء الذين يستخدمون لغة تلجأ إلى مطارق القواميس في زمن شعاره»

من خلال هذا المفهوم الرومانسي للشعر عند "رمضان حمود" يظهر لنا جليا تأثره بآراء الرومانسيين العرب من أمثال جماعة الديوان وكذا النقاد الغربيين، استنادا لما سبق فالرومانسي في الجزائر يهدف إلى التخلي عن توظيف مصطلحات ومعاني القدماء، ويدعو إلى التعبير عن الذات الإنسانية ومشاعرها مستوحيا أفكاره من عناصر الطبيعة الخلابة التي تؤثر في نفسية الأديب، ولكن نرى بأن الرومانسية في الجزائر تنحاز إلى تقليد معاني وأفكار المشرق أو هي تبعية للحضارة الغربية، لهذا يجب أن تكون الصلة بين هذه الآداب والأدب والنقد الجزائري صلة تفاعل وتمازج، وأخذ وعطاء لا صلة تبعية مطلقة.

سمات الاتجاه الوجداني في الجزائر

أ- **الصدق الفني** : تعد العاطفة وصدق المشاعر وقدرة الشاعر على رسم صورة شعرية صادقة إحدى خصائص الاتجاه الرومانسي وهذا ما قاله الناقد في مقدمة كتابه (الشعر الجزائري من الرومانسية إلى الثورية) «إن هذا الاتحاد يمثل الصدق الفني، الذي هو شرط أساسي للإبداع الشعري، أصدق تمثيل لما فيه من عفوية، وتلقائية، ونزوع ذاتي داخلي إلى قول الشعر...». وهكذا تجد (الصدق الفني) عند الناقد هو منبع ومصدر التجربة الشعريةقد ذكر "محمد ناصر" آراء الناقد "رمضان حمود" حول هذه الخاصية في الشعر الرومانسي الذي «الصدق الفني هو أساس نجاح التجربة القنية**، وقد شبه الناقد "رمضان حمود " الشاعر بالرسام حيث يقول : «فكما أن الرسام لا ينجح في فنه إلا إذا تزود بطاقة حية من الشعور، كذلك لا طاقة للشاعر عن امتلاك العقول، والأخذ بأزمنة النفوس إلا إذا أجاد تصوير تلك العاطفة»، فرمضان حمود" جعل الصدق الفني في التجربة الأدبية إحدى شروط نجاحها إذا ما احتوت على إحساس قوي صادق وهذا ما وضحه "محمد ناصر" عندما أقر بأن رمضان حمود" اشترط صدق العاطفة وجعلها «أول عنصر في العمل الشعري يتوقف عليه نجاح الشعر أو إخفاقه»، وهذا الرأي قد دعا إليه العقاد الذي رأى أن «الإحساس القوي بجوهر الأشياء والنفاذ إلى صميمها إحدى العوامل التي

تميز شاعر عن غيره حيث أن صدق الصورة الفنية ونقلها بإحساس صادق قوي مؤثر لا يتأتى إلا لمن كان مرهف الحس واسع الخيال» .

ب – التعبير عن الذات:

تعد سمة الذاتية من السمات الغالية عند الشعراء الوجدانيون ذلك لأن الرومانسية غرضها الوحيد هو الحقيقة الفردية أي أسرار طبيعة الكاتب الخاصة، إن أول واحبات الكاتب هو أن يكون نفسه بكل ما في هذه الكلمة من معنى. وهو ما عبر عنه فيكتور هيجو (Victor Marie Hugo) بقوله : «على الشاعر أن ينهل عبقريته من روحه وقلبه»، وقد رأى الناقد أن الشعراء الرومانسيون «طغت عليهم حالة من القلق وعدم توازن القوى النفسية وقد دفعهم شعورهم بأنفسهم إلى عدم الرضا بما هو موجود والتطلع أبدا لما هو أفضل، وهذا الأخير هو في غالب الحالات مثالي أو حيالي». فقد كانت نزعة البحث عن الذات، وتلمس الطريق، والتطلع إلى غد أفضل، من أبرز مميزات الشعر الجزائري في مرحلة العشرينيات وبداية الثلاثينيات وهذه نتيجة حتمية لما رأته الذات الجزائرية من واقع مرير تريد تغييره إلى الأفضل فكانت حناجر الشعراء الرومانسيون تعبر عن ذواتهم الأليمة والحزينة آنذاك.

ج - الطبيعة :

الشاعر الرومانسي واقعه المرير فأراد أن يهرب إلى الطبيعة ويحاول التفتيش عن واقع أفضل فأصبحت الطبيعة لها وقعها الخاص في نفوس الرومانسيون فقد «كان مفهوم الشعر عندهم تعبير عن النفس من جهة، وتعبير عن الطبيعة من جهة أخرى»، وقد استعان الشعراء الجزائريون مثل غيرهم من الشعراء «بالطبيعة للهروب من واقعهم بالحنين إلى الماضي المشرق وذكريات الطفولة البريئة، ولجأوا إلى أحضان الطبيعة لجوء المتعب من أدران الحياة والمجتمع». فعناصر الطبيعة الخلابة وشاخصة وجد فيها الشعراء الرومانسيون ملاذهم فيها فأصبحت مصدر إلهامهم بما تحتويه من هدوء واستقرار وتأمل ومشاهد خلابة تجيد قرائهم الشعرية، ولعل طبيعة أرض الجزائر لا تقل سحرا ولا جمالا عن غيرها فقد

تغنى بها الكثير من الشعراء الرومانسيين الجزائريين واصفين عناصرها من **ليل وبحر، وشتاء وصيف** وغيرها وقد ذكر الناقد العديد من الشعراء الذين تغنوا بالطبيعة من بينهم "عبد الله شريط" و"أحمد سحنون" "عبد القادر السائحي" وغيرهم وسأخذ نموذجين فقط لكل من "عبد الله شريط" الذي وصف الصيف في قصيدة مطولة وهذا مقطع منها يقول فيه:

هو ذا الصيف يا فؤادي ينساب بجـــــــــــنبي مفعما باللـهيب

قد تولى عهد الربيع الذي شـا خ سراعا ومـــــــال نحو الغروب

إن القارئ لهذه القصيدة يحس بمدى الحزن والكآبة التي يعيشها الشاعر من خلال تصويره لشعوره وإحساسه وهو يعيش فصل الصيف الذي يمتاز بحرارته الشديدة وهذه المقطوعة «وكأنها قطعة من وجود الشاعر نفسه»، كما نجد "أحمد سحنون" الذي يصف البحر قائلا : « فكان مؤخك، وهو يغتر بالصخور إذ اصطدم دفع جزى من مؤجع فقد التصير، فالسخم. يا بحر ما هذي الشكاة؟ ألست توصف بالعظم؟» فالشاعر هنا يسقط حالته النفسية على البحر ويخاطبه متسائلا عما ألم به من مصائب ويحاوره محاورة الصديق الصديقه. فالطبيعة بهذا التصور تعد من أكثر خصائص الرومانسية استقطابا للشعراء لأنه يصور من خلالها ما يوجد بعقله وقلبه ولكي ينسى واقعه ويخفف من آلامه ومآسيه.

وظيفة الشعر الرومانسي:

من القضايا النقدية التي تناولها النقد الرومانسي وظيفة الشعر، إذ بحث العديد من النقاد عن الأدب الرومانسي، من بينهم الناقد "رمضان حمود" الذي يرى أن الشاعر هو الذي يتحمل دور الريادة في الحياة والمجتمع في المجال السياسي والديني والاجتماعي وعليه أن يقاوم الاستبداد بلسان حاد لا يرده عن ذلك اضطهاد أو قوة أو جيروت»يحمل الناقد "رمضان حمود الشاعر مهمة الحفاظ على المجتمع فيكون الشاعر لسان حال المجتمع ليوصله إلى القمة والدرجات العليا دون خوف أو رهبة ولا تقف مسؤولية الشاعر عند هذا الحد عند "رمضان حمود" بل أولى للشاعر أن يمعن النظر لا في الواقع

الحاضر بل النظر للمستقبل وهذا ما يوضحه قائلا : «إن دور الشاعر الريادي لا يقف في حدود النظر إلى الواقع، والتفاعل مع الحاضر فحسب، وإنما دوره أن ينظر إلى مستقبل بلده، ومستقبل شعبه ، وأن يهيئ التربة الصالحة للخلف». فالشاعر يحمل دور الرسام الذي يرسم الطريق السوي لأبناء وطنه وذلك عن طريق لغة عصرية راقية تقرع النفس والقلب معا.

ودور الشاعر أيضا يتمثل في ترقية الذوق و«تهذيب النفوس، والضمائر والأذواق ومنحها دورا إيجابيا في الرفع من قيمة الإنسان وفي النزوع إلى الحرية»

التشكيل الإيقاعي في الشعر الوجداني:

إذا كانت الموسيقى في الشعر التقليدي ظلت محافظة على كيانها القديم وسارت على نهج الرومانسي لأنها حاولت كسر الروتين الموسيقى بتجاوز القديم ومراعاة التجديد فقد ظهر عند جيل الأربعينيات والخمسينيات من الشعراء الجزائريين ميل واضح نحو الخروج عن النظم الرتيب الذي التزم به جيل الإحياء وقد استعان "محمد ناصر" بجملة من الشعراء الجزائريين لكي يبرز لنا رؤيته النقدية الموسيقى الشعر لدى الرومانسيين وقد ركز ناقدنا على الشاعر "رمضان حمود" الذي يعد رائد التجديد في الجزائر خلال تلك الفترة حيث لجأ "رمضان حمود" إلى« المزج في تجربة واحدة بين الشعر المنثور الخالي من الوزن المحافظ على القافية، وبين المحافظة على الوزن والقافية المتراوحة وهي محاولة تتسم بالتحريب والبحث عن إطار موسيقي غير الإطار التقليدي الصارم " وخير دليل على هذا المزج قصيدة قلبي لـ"رمضان حمود" التي يقول فيها : وقل اللهم إن الحياة مرة»... ثم يواصل قوله : «أنت يا قلبي فريد في الألم والأحزان وتصييك من الدنيا الخيبة والحرمان أنت يا قلبي تشكو هموما كبارا وغير كبار ارفع صوتك إلى السماء مرة بعد مرة «ويلاه !من هم يذيب خوانجي فكأنما في القلب لجذوة نار نفسي معذبة بهيمة . دمعي على رغم التخلي جار خطي على متن النوائب راكب تمشي به لمحطة الأكدار» نلاحظ أن هذه القصيدة في بدايتها قد نظمت على شكل مغاير للشكل الموسيقي القدم حيث كان كل مقطع فيها ينتهي بقافية مختلفة كـ (النون، والراء والتاء) ولكن الأبيات الموالية نظمها الشاعر على شكل أبيات

موزونة مقفاة أي حافظ فيها على قافية واحدة والتي تمثلت في حرف الراء). وهناك نماذج كثيرة لرمضان حمود اتبع فيها التنويع في القوافي والأوزان .

اللغة في الشعر الوجداني:

الخطاب الشعري يمثل حركة اللغة في صناعة الوعي، وطرائقها في تشكيل أنماط الفكر وما تحتويه من طاقات في توجيه الحياة مما يؤدي بنا إلى اعتبار الشعر متحفا للغة، نرى فيه جمالياتها وأبعادها الدلالية فهي تحتضن الكون وتعمر فضاءاته المعرفية والفنية وتقرأ ماضيه ومستقبله، من هذا المنظور تصبح اللغة الشعرية عالم يختلف عن باقي لغات الفنون الأدبية الأخرى، فهي تتجاوز المنطق العقلي والواقعي لتصل إلى عالم الخيال. ذلك لأنها تتمتع بلغة إيجالية لا تقف عند حدود مباشرة معروفة بل تسعى إلى استغلال طاقتها الانزياحية وكلماتها الدلالية لذلك يرى "محمد ناصر" أن« لغة الشعر استكشاف دائم لعالم الكلمة واستكشافا دائما للوجود عن طريق الكلمة والشاعر يتعامل مع ذاته، ومع الوجود من خلال اللغة ... »

بدأت محاولات التجديد في لغة الشعر خلال فترة الأربعينيات والخمسينيات حين ظهر جيل يحاول التجديد في لغة المسرح الشعري من تصوير وإيحاء. فلم يعد الشاعر الجزائري الوجداني يقتصر على توصيل الأفكار إلى المتلقي وإنما زاد وعيه بعملية الإبداع الشعري فأخذ الشعر يمتص القوى الخيالية المبتكرة التي ولجها من الثقافات المختلفة، فأخذت صوره تتنوع وتعدد وبذلك ابتكرت لغة شعرية جديدة احترقت حاجز النسق التقليدي وتجاوزت أساليب التعبير المستهلكة.

- **اللغة التصويرية الايحائية:**

كان ظهور الاتجاه الوجداني في الشعر الجزائري الحديث أثر واضح في تطوير المعجم الشعري حيث أدخل مفاهيم ومفردات جديدة لم تكن مستخدمة من طرف الشعراء المحافظين فبتعد الوجدانيون عن الألفاظ السطحية المباشرة، حيث فضل عليها الألفاظ والعبارات القادرة على إثراء تجربته الفنية الثرية

بالإيحاء الفني والروحي والتي تستطيع أن تشيع حولها ظلا ونغما، وتضفي على القصيدة جوا أشبه ما يكون بذلك الجو الذي تضفيه اللوحة الزيتية الرائعة» ولكي يوضح لنا الناقد الفرق بين اللغة الإحيائية واللغة الوجدانية سوق لنا نموذجين يعالجان نفس الموضوع أحدهما لمحمد العيد آل خليفة والآخر لعبد الله شريط خلال وصفها لليل : حراما ... يقول محمد العيد آل خليفة : «

يا ليل طلـــــت جناحا متى تريني صباحا

أرى الكرى صد عني بوجـــهه وأشاحا

أمسى عليـــا حراما. من كان منه مباحا

فالشاعر الوجداني لم يعد يركض وراء تلك الألفاظ والكلمات التي تقرع الأذن بالقوة والضخامة بل سعى إلى إدراج قعقعة لفظية تطرب الآذان وتتجاوزها إلى القلب والوجدان هادئة حساسة زاخرة بمعاني ودلالات جمالية. وقد عرف الوجدانيين بشجاعتهم الواضحة في استخدام علاقات جديدة بين المفردات اللغوية، تختلف عن العلاقات التقليدية المعروفة، حيث تقلوا الألفاظ من استعمالها المتداول المألوف إلى مجالات مختلفة بعيدة تماما، وذلك عن طريق الخيال الذي رسم عدة صور تختلف عن واقعها حيث «ينقلون صفات من محال المرئيات إلى مجال المسموعات، أو من محال الشم إلى مجال البصر »؛ فالشاعر الوحداني تجاوز المجال المعروف في الكتب القديمة من تشبيه واستعارة وكناية ليستنطق مجاز الرمز والإيحاء والانزياح وبما أن الشعراء الرومانسيين يهدفون إلى اتساع اللغة وتعدد تعابيرها فقد كان المجاز إحدى طرق زيادة اللغة في التعبير وهذا ما أكده أدونيس حين قال أن اللغة وسيلة اكتشاف واستبطان هدفها إثارة النفس والدخول في الأعماق فهي تمامس لكي تصنع أنفسنا وكياننا فوراء كل حرف من حروفها مقطع دم خاص ودورة حياة خاصة فهي جوهرة تكمن في الدم لا في الجلد وأي معنى أبلغ من هذه الكلمات الأدونيسية التي توضح أن اللغة الوجدانية قد حرقت الجلد لتغوص في الدماء أي حرقت المظهر الخارجي السطحي لتبحر في العالم الباطني والنفاذ إلى جوهره لتشيد معان جديدة. وقد ذكر الناقد محمد ناصر العديد من الشعراء الجزائريين الذين يستخدمون هذا المجاز ولكن رأى أن

الشاعر الجزائري مصطفى محمد العماري من الشعراء الجزائريين الأكثر استخداما وتوظيفا لهذا المجاز، حيث رأى أن محمل دواوينه تستهوي المجاز والخيال المجنح وهذا ما وضحه في قصيدته معاهد أحبابي من ديوانه أسرار الغربة للغماري والتي يقول فيها : «**أحبابي.. طالت بي شكاني وغربتي**

بدرب يدوس الليل خصلاته الغنا

كأن الظلام المر.. يحفر في دمي

سرابا.. وأوراق الأسى تشمر الحزنا

إلى الجراح السود.. تعصر مقلتي.

يرى الناقد أن الغماري توسع في استعمال المجاز اللغوي من خلال العلاقات التي أقامها بين ألفاظه مما مكنه من الابتعاد الكلي عن اللغة التقريرية المباشرة، معتمدا على لغة الإيحاء والرمز وتحسيد الأشياء من مجالها المادي إلى مجالها الحسي. من هنا رأى الناقد أن الوجدانيين الجزائريين قد مثلوا ثورة على اللغة التقليدية المحافظة حيث تجاوزوا نظرة الشعراء الإصلاحيين للغة الشعرية الذين ضيقوا خناق اللغة وجعلوها حبيسة المجال الاجتماعي والتي قيدات من حرية الشاعر، وجعلته ينسى التعبير عن ذاته وإحساسه. وصفوة القول : إن الاتجاه الرومانسي أو كما أطلق عليه" محمد ناصر" الوجداني كان يدعوا إلى الذائية والفردية مشكلا ثورة عارمة على القديم ورؤية نقدية واضحة المعالم للشعراء الكلاسيكية وأدباءها تنكر عليهم محدودية الفضاء الذي يجولون فيه داعين إلى تحطيم السدود التي تحبس الشعر وتضيق من دائرته وبهذا فالشعراء الوجدانيين سعوا إلى نزع القداسة اللغوية التي حافظ عليها التقليديين متخذين في ذلك تطوير اللغة الشعرية وفق حالات العصر وتغيره ، فيفضل الشعراء الوجدانيين تطور المعجم الشعري، فبعد أن كان يدور في قوقعة الموضوعات السلفية والإصلاحية استطاع تجاوز ذلك بإدراج الموضوعات العاطفية الذاتية وبإدخال ألفاظ جديدة مستمدة من الواقع المعاش، أو عن طريق الذات وعناصر الطبيعة الخلابة، ذلك لأن اللغة الوجدانية لا تحكمها حدود التقاليد ولا الأعراف ولا قيود

الماضي بل تحكمها التجربة الشعورية فقط. وهذا يدل حقيقة أن البيئة الأدبية في الجزائر آنذاك بدأت تنفتح على تجارب أدبية مختلفة أسهمت في تطور اللغة نتيجة احتكاك الشعراء بثقافات مختلفة واطلاعهم على نماذج شرقية وغربية أفادت حناجرهم الشعرية شكلا ومضمونا.